حملات على النبي الكريم
و أخذه بالحلم و المصابرة عليها

بقلم: محمد الرابع الحسني الندوي الرئيس العام لندوة العلماء لكناؤ ،الهند

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام علي سيدنا و نبينا محمد بن عبد الله الأمين ، و علي آله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، و بعد!

فإن الإسلام هو الدين الحق المؤيد من الله تعالى عن طريق أنبيائه الذين كان الله يبعثهم في مختلف الأزمان و الأمكنة قبل خاتم رسله محمد بن عبد الله صلى الله عليه سلم الذي كان آخر هؤلاء الأنبياء ، فقد بعثه في الزمن الأخير ، و كان قبله يبعث نبياً كلما كان يقع في دينه الحق و صراطه المستقيم انحراف أو تغيير بسبب الضلال الذي كان يقع في الناس بتأثير أهواء النفس المادية والتقاليد الباطلة ، و عندما كان يصبح الطريق المستقيم منحرفاً عن جادة الحق بحكم الأوضاع الفاسدة فكان الله تعالى يبعث في مثل هذه الأحوال الفاسدة نبياً جديداً لإعادة شريعة الله الحقة إلى جادتها الصحيحة ، و لكن الجهود المبذولة عن طريق أنبياء الله تعالى لإصلاح الأحوال ، و إعادة العقيدة و العمل إلى مكانهما الصحيح ، كانت تواجه مخالفة و معاداة من أصحاب الأهواء الباطلة، فقد كانوا يقومون في وجه دعاة الخير و القائمين على محجة الحق بالمخالفة و المعاداة ، وكان أهل الضلال و الأهواء هؤلاء يستمسكون بما ورثوه من آبائهم من التقاليد و المعتقدات بدون النظر في صوابها و خطأها ، و صلاحها و فسادها ، و بذلك قامت في كل عهد من العهود معركة بين أهل الصلاح ، و أهل الفساد .

و لما جاء خاتم رسله محمد بن عبد الله الأمين صلى الله عليه و سلم واجه أيضاً معارضة شديدة و مخالفة قاسية ، من قبل أهل الإشراك بالله تعالى و التقاليد الضالة ، و ذلك عندما بدأ النبي الكريم سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم عمله لإصلاح العقيدة و العمل مخالفاً لما تعوده العرب من عوائد الكفر و أعمال الشرك من عبادة الأصنام والأوثان ، و الانحراف عن عوائد الخير و الصلاح فلم يقبلوها منه صلى الله عليه و سلم ، بل قاموا في وجهها ، و أصروا على الفساد الذي كان قد عم في معتقداتهم وعباداتهم ، وتهجموا على دعوة الإسلام بكل قوة يملكونها قولياً وعملياً ، وبدأوا يحملون على نبي الإسلام صلى الله عليه و سلم و على أصحابه الذين اتبعوه من الناس حملات مختلفة ، وأرادوا أن يقضوا على هذه الدعوة الصالحة المصلحة ويئدوها في مهدها بالمعارضة

الشديدة لما كانوا عليه من أعمالهم و طرق حياتهم ، وكانت حملاتهم في ذلك منصبة وشديدة و بخاصة على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لأنه كان مركز هذه الدعوة و مصدر العمل بها ، فإن انتهى عمله انتهت دعوته فإنه مصدر الإسلام الأساسي فبزواله يزول الإسلام ، ولذلك عكف مخالفو الدين الإسلامي على معاداته و معاندته رغم أنه صلى الله عليه و سلم كان منذ طفولته إلى بدء رسالته من أكرم و أحسن من وجدوه بين أبناء قبيلته و أعضاء أسرته خلقاً و سيرة و سلوكاً مع الناس ، وكان أحب فتى في قومه وبلده و كانوا يعترفون بذلك حتى لقبوه بالصادق الأمين ، و لكنهم لما سمعوا دعوته لتغيير الأوضاع الفاسدة و لعودتهم من الإشراك بالله إلى التوحيد الذي ورثوا عقيدته و عمله من أبيهم و نبي الله فيهم سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان قد قام ببناء الكعبة لعبادة الرب الواحد وهم أصبحوا بنسبتهم إليه سدنتها و المسئولين عنها ، و رغم ذلك أصبحوا مخالفين لتعاليمه الحقة ، وانقلبوا عليه باختلاف عنه وإنكار رافضين الدعوة إلى تصحيح معتقداتهم ، وقاموا بكل مخالفة و عداوة لرسولهم العربي الأمي المتبع لنبي الله و أبيهم سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ولكن الله تعالى أمر نبيه الكريم بإنذار قومه غير مبال بعداوتهم فخرج و صعد على جبل الصفا ووقف حيث ينظر إلى كل ما حوله من طرق ومواضع ونادى بأعلى صوته وخاطب قومه : "و ا صباحاه" وكانت صيحة معروفة مألوفة لديهم ينتبهون لها ، كلما أحس إنسان بخطر عدو يغير على أبناء البلد و على أبناء القبيلة على غفلة منهما نادى : "و ا صباحاه" فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء ، واجتمعوا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب! أ رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم ، فقال : "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" ، فسكت القوم ، ولكن أبا لهب قال: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ "[1]

فلما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة للإسلام ، و صدع بالحق كما أمره الله تعالى ، و ذكر آلهتهم بإبطالها ، و عابها ، غضبوا عليه و ناكروه ، و أجمعوا على خلافه و عداوته ، والتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبراء قومه مراراً ليعرض عليهم ما كان قد خفي عليهم من الدين الصحيح المنزل من الله تعالى ، وأنذرهم من سوء العاقبة يوم القيامة ، فردوا عليه رداً شديداً ، وقام بعضهم بمعاملة قاسية متعنتة ، وأهانوه و أرادوا البطش به ، ولقي منهم بعض الأيام سباً وضرباً على ظهره أما هو فقد التزم بالصبر و احتمال الأذى ، لا يرد عليهم رداً قاسياً ، فكان يصبر

---

[1] السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي .

على أذاهم ، و ذلك لأن الله تعالى كان قد أمره بكف اليد ، وبإقام الصلاة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يواجه اعتداءات أعدائه إلا بالصبر والاحتمال الهادئ ، لا يقاومهم ولا يسعى للانتقام منهم ، وبذلك أصبح الأمر أمراً أشد عليه وأصبح الأعداء جرآء عليه أكثر، يعاملونه بالسخرية والإهانة ، وبالاعتداء واختيار العنف ، وبالتحدي الظالم حتى إنهم عندما وجدوه في حالة سجوده ، وضعوا على ظهره مادة قذرة ثقيلة ، صعب عليه احتمالها و أزالها عنه غيره ، فكان الرسول صلى الله عليه و سلم يحتمل كل هذه الحملات على نفسه و على عرضه و كرامة نفسه ، ويعرض عليهم الحق بأسلوب هادئ حكيم ، وهم يمنعون أنفسهم و غيرهم أن يسمعوا كلامه و كلام الله تعالى الذي كان يتلوه أمامهم لإرشادهم إلى الهداية ، و استمر الحال على ذلك من احتمال النبي صلى الله عليه وسلم لسلوك ظالم مهين ، واعتداءات و حملات على نفسه الكريمة طيلة تواجده في مكة المكرمة ، فإنهم أغروا برسول الله صلى الله عليه و سلم سفهاءهم ، فكذبوه و آذوه ، و كانوا يرمونه بالسحر و الشعر ، و الكهانة و الجنون ، و تفننوا في إيذائه صلى الله عليه و سلم ، إلى أن خططوا تخطيطاً لقتله ، وقاموا بمؤامرة خفية و هي أن يكون قتله في ظلام الليل بأيدي الجميع ليتفرق دمه على مختلف فروع القبيلة ، فلا يمكن لأقاربه طلب ثأره ، ولكن الله أخبر نبيه صلى الله عليه و سلم بالوحي بهذه المؤامرة فخرج من بين هؤلاء المجتمعين لقتله في عقر الليل بدون أن يفطنوا لخروجه فنجا من قتلهم ، و هاجر من وطنه العزيز الكريم إلى مدينة يثرب التي كان قد حصل له فيها مؤيدون وناصرون .

لقد صبر الرسول صلى الله عليه وسلم على اعتداءات أبناء وطنه طيلة إقامته فيه و كان صبره و احتماله في مصلحة الدعوة ، فقد كان صاحب الدعوة وصاحب الدعوة لا يريد أن يعرف الناس دعوته أنها على غير طبيعة السلم ، و أنها أيضاً تعتمد على طبيعة الخصومة والعداوة ، فإن العداوة من جانب واحد إذا واجهت العداوة مثلها من جانب آخر أيضاً فإنه تسوء سمعتها ، وهي لا تنجح في هدفها نجاحاً كبيراً ، فكان من تأثير الإخلاص و النصيحة من رسول الله صلى الله عليه و سلم في دعوته أمام الناس أن الإسلام انتشر في مكة المكرمة ثم في المدينة المنورة رغم العراقيل والضغوط والحملات التي كانت تنصب عليه ممن حوله من الناس ، وهذه هي قوة الحق ، فإن الحق يحمل في نفسه قوة الإقناع ، فكلما ظهر

وتبين فإنه لا يستهان به مهما قام الأعداء به من جانبهم من تضليل عقول الناس ومنعهم من الاستماع إليه ، ومهما كان التعصب الأعمى يمنع أصحابه من الاطلاع على الحق ، و مهما كان يحمل أصحابه على معاداة الحق ، فإن الداعي الكريم كلما استطاع أن يبلغ الحق إلى عقول مخالفيه كان ناجحاً ، وهذا هو سر انتشار الإسلام بسرعة فائقة في مدة ثلاث وعشرين عاماً في مكة المكرمة و في المدينة و فيما حولهما من أصقاع و بلدان .

لقد كان من أقطاب العداوة التي واجهها المسلمون في مكة المكرمة أبو جهل بن هشام ، فإنه حسد النبي الكريم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم على ظهوره البالغ في بني قومه وعظمته الحاصلة من اتباع الناس له ، فقام بمختلف الوسائل لإسقاط عظمته ، وللقضاء على ظهوره وشهرته ، فعاداه معاداة علنية حيناً ، و حمل عليه حملات ، وقام بمشاورته مع أصدقائه بمؤامرات مختلفة حيناً لآخر، كان من أعظمها مؤامرة قتله بطريقة جماعية خلص منها الرسول صلى الله عليه وسلم على وحي من الله تعالى ، وكان آخر هذه المؤامرات خروجه بجيش معدّ إعداداً كاملاً إلى مقر المسلمين في المدينة المنورة و ضواحيها لحملة فاصلة على قوته الإسلامية التي تكونت في المدينة المنورة ولكنه لم ينجح في ذلك وذهب ضحية لها عندما هجم جيشه على المسلمين في معركة بدر ، وقتل من قتل من الكفار في هذه المعركة .

يقول ابن إسحاق متحدثاً عن إساءات أبي جهل خلال تواجد رسول الله صلى الله عليه و سلم في مكة : مر أبو جهل برسول الله صلى الله عليه و سلم عند الصفا ، فآذاه و شتمه ، و نال منه بعض ما يكره من العيب لدينه و التضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه و سلم .

ويقول عبد الله بن مسعود : كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في المسجد الحرام و رفقة من المشركين من قريش و نبي الله صلى الله عليه و سلم يصلى ، و قد نحر قبل ذلك جزور و قد بقي فرثه و قذره ، فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمد ـ صلى الله عليه و سلم ـ و نبي الله ساجد إذا انبعث أشقاها فألقاها عليه.[٢]

و قال أبو جهل يا معشر قريش إني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيقه حمله أو كما قال ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ،

---

[٢] عيون الأثر في فنون المغازي و الشمائل و السير /ابن سيد الناس، ١/ ١٣٦، مؤسسة عز الدين للطباعة و النشر ،بيروت ، ١٩٨٦م

فأسلموني عند ذلك ، أو امنعوني ، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه و سلم ينتظره ، و غدا رسول الله صلى الله عليه و سلم كما كان يغدو ، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه و سلم حمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً ، قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده ، و لما سأل قريش عن ذلك قال: لما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل و الله ما رأيت مثل هامته و لا قصرته و لا أنيابه ، بفحل قط فهمّ بي أن يأكلني .

وكان الخصم الكبير الآخر لرسول الله في مكة أبو لهب بن عبد المطلب ، وكان عماً لرسول الله صلى الله عليه ، ولكنه لأسباب شخصية أصبح يعادي الرسول صلى الله عليه وسلم معاداة ظالمة ، فكان يسيئ إليه ، ويطعن عليه ، ويقوم بشتمه ، وكان يتنحى عن طريقة أسرته الهاشمية التي كانت مع بقائها على الكفر محايدة في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان نتيجة شتمه لرسول صلى الله عليه وسلم أن نزلت سورة في القرآن الكريم على تحقيره بقوله تعالى :﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد﴾ ، سميت امرأته أم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه و سلم حيث يمر.[٣]

وكذلك كان أحد أقاربه النضر بن الحارث الذي كان ابن عمته لكنه يخالفه ويعارضه ، كان قد زار بلدة فارس وسمع أساطير رستم وكان يتحدث بهذه الأساطيرو يعارض بها الآيات القرآنية ، و يقول بماذا يمتاز محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القرآن عن القصص التي أتحدث بها ، كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه و سلم مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى ، و تلا فيه القرآن ، و حذر قريشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خلفه في مجلسه إذا قام ، فحدثهم عن رستم السنديذ ، و عن اسفنديار، و ملوك فارس ، ثم يقول : و الله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، و ما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبتها كما اكتتبها [٤]، و بذلك يريد أن يقوم بإبطال الوحي الإلهي و إبطال مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

[٣] سيرة ابن هشام ص : ٣٧٦/ ١

[٤] نفس المصدر، ص: ١/٣٨١.

و كذلك كان هناك شخصيات أخرى من قبيلته صلى الله عليه سلم يقومون بالحملات على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم و دعوته إلى الدين الحق ، بطرق مختلفة و أساليب عديدة ، منهم بالإضافة إلى أبي جهل و أبي لهب أبوسفيان بن الحارث ، و عتبة ، و شيبة ، ابنا ربيعة ، و عقبة بن أبي معيط ، و أبو سفيان بن حرب ، و الحكم بن أبي العاص بن أمية ، و معاوية بن المغيرة بن العاص بن أمية ، و غيرهم من مختلف القبائل ، فهولاء كانوا أشد على المؤمنين في معاملتهم معهم بالأذى و كان معهم سائر قريش ، فمنهم من كانوا يعذبون من كان في ملك يمينهم أو كانوا من الأجانب ، و منهم من يؤذون عامة من أسلموا من الجمهور، على كل فقد لقي المسلمون من كفار قريش و حلفائهم من الأذى و العذاب و البلاء عظيماً ، و لكن رزقهم الله من الصبر على ذلك شيئاً عظيماً ليدخر لهم ذلك في الآخرة و يرفع به درجاتهم في الجنة ، و كان الإسلام في كل ذلك ينتشر في الرجال و النساء ، فهم يدخلون فيه باستمرار رغم معارضة أعداء الإسلام لإسلامهم .

يقول ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه و سلم في بيته : أبو لهب ، و الحكم بن أبي العاص بن امية ، و عقبة بن أبي معيط ، و عدي بن حمراء الثقفي ، و ابن الأصداء الهذلي ، و كانوا جيرانه ، لم يسلم منهم أحد من نزول عقوبة الله عليهم إلا الحكم بن أبي العاص ، و كان أحدهم يطرح عليه صلى الله عليه و سلم رحم الشاة و هو يصلي ، لقد كان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم حجراً يستتر به منهم إذا صلى ، فكان الرسول صلى الله عليه و سلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به صلى الله عليه و سلم على العود ، فيقف به على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف ، أي جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق [٥].

و كان أشراف قريش مجتمعين يوماً في الحجر ، إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه بالقول ، و عادوا بذلك ثلاث مرات ، فوقف ثم قال : أ تسمعون يا معشر قريش ؟، أما و الذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأسكت القوم ، فلا حراك بهم .

فلما كان من الغد ، و هم في مقامهم ، طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، و أحاطوا به ، و أخذ رجل منهم

---

[٥] سيرة ابن هشام ، ص: [illegible]، دار الهداية ، القاهرة . [illegible]

بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، و يبكي و يقول : أ تقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟! و رجع أبو بكر يومئذ و قد صدعوا فوق رأسه ، و قد جروه بلحيته .

و خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم يوماً فلم يلقه أحد من الناس ، إلا كذبه و آذاه ، لا حر و لا عبد ، فرجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى منزله ، فتدثر من شدة ما لقيه ، فأنزل الله تعالى عليه : (يأيها المدثرقم فأنذر) .

و تفنن قريش و قسوا في إيذاء رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فلم يرعوا فيه إلاً و لا ذمة ، و تخطوا حدود الإنسانية ، فكان رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم ساجداً في المسجد ، و حوله ناس من قريش ، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور فقذفه على ظهر رسول الله صلى الله عليه و سلم فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته فاطمة فأخذته من ظهره ، و دعت على من صنع هذا .

و دأب رسول الله صلى الله عليه و سلم يقوم بالدعوة إلى الله ، و لم يفت في عضده ما كان يلقاه من الأعداء من عداوة و إهانة و إساءة قاسية ، و لما يئست قريش منه ، صبوا جام غضبهم على من كان أسلم من أبناء وطنهم جميعاً ممن ليس لهم من يمنعهم .

كان بلال الحبشي ـ و قد أسلم ـ يخرجه مولاه أمية بن خلف إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره ، في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا و الله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، و تعبد اللات و العزى ، فيقول و هو في ذلك البلاء أحد أحد .

و كان بنو مخزوم يعذبون عمار بن ياسر و أباه و أمه برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه و سلم و يقول لهم : صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة ، فأما أمه فقتلوها ، و هي تأبى إلا الإسلام .

و كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف و منعة أنّبه و خزّاه ، و قال ، تركت دين أبيك و هو خير منك ، لنسفّهنّ حلمك ، ولنفيّلنّ رأيك ، و لنضعنّ شرفك ، و إن كان تاجراً قال : و الله لنكسدن تجارتك ، و لنهلكن مالك ، و إن كان ضعيفاً ضربه و أغرى به .[٦]

بذلك كله كان رسول الله عليه وسلم يعاني شدة و عداء وحملات قاسية على شخصيته العظيمة ، و لم يكن يجد راحة من ذلك ، و تنفيساً

---

[٦] السيرة النبوية للشيخ أبي الحسن الندوي .

لكربته إلا بما ينال من عمه أبي طالب من حماية ، و بما يناله من مؤانسة من زوجته الكريمة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، و قد استمر له هذا الدعم ، و دامت له المواساة إلى نهاية عشر سنوات على دعوته ، وانقطعت لوفاتهما في عام واحد ، فوجد بذلك الجو أكثر مجافاة من الناس فاحتاج إلى أن يحصل له شيئ من حماية من شخصية ذات نفوذ و تأثير ، و يكون بديلاً لما فقده من حماية عمه أبي طالب فسافر إلى مدينة طائف التي كانت قريبة من مكة و كانت في مستوى بلدة مكة في أهمية المكان لعله أن يحصل منها تأييداً و حماية له ليستمر في أداء مسؤوليته الدعوية و الدينية ، و لكن لما دعاهم إلى الله فكان ردّهم شرّ ردّ ، و استهزؤوا به ، و أغروا به سفهاءهم و عبيدهم ، يسبونه و يصيحون به ، و يرجمونه بالحجارة ، فعمد ‘الى ظل نخلة و هو مكروب ، فجلس فيه ، و كان ما لقيه في الطائف أشد ما لقيه من المشركين ، و قعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجليه إلا رموها بالحجارة ، حتى أدموه ، و هما تسيل منهما الدماء ، و فاض قلبه و لسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعف قوته و قلة حيلته ، و هوانه على الناس ، و استعاذ بالله تعالى و بنصره و تأييده .

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، و قلة حيلتي ، و هواني على الناس ، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين ، و أنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، و صلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، و لا حول و لا قوة إلا بالله ".

و أرسل الله وحيه مع ملك من الملائكة ، و عرض عليه أن ينتقم من هؤلاء المستهزئين الظالمين بإنزال عذاب يهلكهم ، و لكن الرسول صلى الله عليه و سلم قال إنه يرجو أنهم إن لم يقبلوا دعوته فإن أبناءهم ربما يقبلونها فيما يأتي الزمن و أنه يكتفي بهذا

ورجع رسول الله صلى الله عليه و سلم من الطائف إلى مكة بدون تحقيق مطلوبه و صبر على ما أصابه من القسوة و المخالفة ، و قومه أشد ما كانوا عليه من خلاف و عداء و سخرية و استهزاء .

كان صلى الله عليه وسلم يواجه شدة و بلاء من معارضيه إلى أن لجأ إلى هجرة وطنه لما بلغ إيذاء أهل مكة إلى مؤامرة قتله ، و بدأت بذلك

مرحلة جديدة لحملات أعدائه عليه و على أتباعه و هم في مدينة يثرب ، و لكن مكانته في مدينة يثرب أصبحت أقوى مما كانت عليه بمكة بسبب قبول عامة أهل هذه المدينة لدعوته ، فاستمر في دعوته إلى الحق و إلى الدين الإسلامي حتى أصبح له أصحاب و أنصار في المدينة يستطيع بهم أن يقوم بالدفاع عن نفسه و عن رسالته بصورة جماعية ، و كان هذا طوراً جديداً لمواجهة العداوة و الحملات و مخالفة معارضيه .

لقد انتقل الرسول الكريم صلى الله عليه و سلم وأصحابه إلى المدينة المنورة و وجدوا أنصاراً و مؤيدين ، فأصبحت لهم قوة ، و زاد ذلك في انتشار دعوة الإسلام فيمن حولهم من العرب ، و كانوا ملتزمين في عملهم الدعوي بالنصيحة وإسداء الخير حتى جاءت عداوة أعدائهم بصورة حملات عسكرية مروا بذلك من خلال حملات متواترة ، وحروب مفروضة عليهم ، و بدأوا يواجهون شدائد جديدة ، زيادة إلى ما كان يواجهونه في مكة .

كانت الحملات هنا في المدينة المنورة تنصب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى دعوته من ثلاث أطراف وهي طرف الكفار العرب و هم أهل مكة و من كان في نصرتهم من القبائل المجاورة الذين تعنتوا تعنتاً شديداً و أبوا أن يفهموا الإسلام فهماً يهديهم إلى قبوله ، و شنوا غارات على المسلمين في مقر إقامتهم قي المدينة ، والطرف الثاني هم اليهود الساكنون في المدينة المنورة ،الذين رغم معرفتهم من كتابهم السماوي أنه هو الرسول الموعود لهذا الزمن ، و أنه يجب الإيمان به ، و اتباعه ، و قد بشرهم سيدنا عيسى عليه السلام بأنه سيبعث لهداية الناس كما جاء ذكره في سورة الصف في القرآن الكريم ، فإنهم رغم ذلك ناصبوا العداوة مع المسلمين ، و قالوا في مناسبة من المناسبات لمشركي مكة إن دينهم خير من دين التوحيد الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه و سلم والطرف الثالث هم المنافقون من بين المسلمين أنفسهم فإن جمهور قبيلتهم آمنوا و أسلموا فلم تكن مصلحتهم أن يحيدوا عنهم فيحرموا فوائد كثيرة اجتماعية التي كانت تحصل لهم لنسبتهم إلى قبيلتهم .

إنه كان يواجه في مكة المكرمة عداء مخاصميه بصور فردية ، أما هنا فأصبح يواجه حملات أعدائه بصور جماعية ، و هي بشكل حروب كانت تفرض عليه و على أتباعه من أعدائه بمكة و من القبائل الأخرى الموالية لكفار قريش و كذلك مؤامرات خفية من أصحاب الحسد و الضغينة من رجال اليهود القاطنين في المدينة و من شخصيات عربية من أهل المدينة

كانوا يشعرون بحرمان من سيادتهم و مقاصدهم في الحياة الدنيوية من ظهور هذا الولاء الديني الشامل من عرب المدينة لرسالته ولزعامته الدينية ، و بذلك استمرت مواجهته لخصومة مخالفيه ، و لكن تم قبول أهل المدينة لرسالته ، و دخول الناس في الدين الإسلامي أفواجاً ، و ذلك لحكمة الرسول صلى الله عليه وسلم في عمله للدعوة و صبره على إيذاء الناس و معاملته الكريمة الشفيقة معهم رغم شدة خصومتهم و عدم الانتقام إلا في مناسبات تفرض فيها عليه حرب ، أو يلجأ إلى رد الفعل و المكر الخفي الذي كان يكاد يقضي على سلامة الإسلام و المسلمين و أمن هذه الجماعة الصالحة الرشيدة .

و لما انتقل الإسلام من مكة إلى المدينة و استقر رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه فيها ، و بدأ الإسلام ينتشر بسرعة فائقة ، و يزحف و يعلو ، و قام المجتمع الإسلامي بجميع لوازمه ، تبدل الوضع ، و هناك لم يستطع أعداء الإسلام في المدينة إلا اختيار النفاق ، يقول الشيخ أبو الحسن الندوي :

" و كان ظاهرة طبيعية نفسية لا بدّ منها ، فإنما تظهر بادرة "النفاق" في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين ، و قيادتين متقابلتين ، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين ، و يتردد في إيثار إحداهما على أخرى ، و قد ينحاز إلى دعوة ، فيكون في معسكرها ، و يعطيها ولاءه و حبه العاطفي ، إلا أن مصالحه المادية ، و انتشار الدعوة المقابلة و انتصارها ، لا يسمح له بإعلان موقفه ، و الانضواء إلى الدعوة الأولى ، و قطعه للحبال التي تربطه ببيئته الأولى ، و قد صور القرآن هذا الموقف المضطرب تصويراً دقيقاً ، فقال:﴿و من الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، و إن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا و الآخرة ، ذلك هو الخسران المبين﴾[٧]، و هم الذين وصفهم بقوله :﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء﴾[٨] ".

فامتلأت قلوب هؤلاء المنافقين غيظاً و حسداً للحب الغامر و الولاء الشامل الذي أبداه أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه و سلم ، فصاروا يكيدون له ، و يتربصون به الدوائر ، و يقلبون له الأمور ، و تكونت في المدينة جبهة معادية متسربة في المجتمع الإسلامي و كانت هذه الجبهة أشد خطراً على الإسلام و المسلمين من الأعداء المجاهرين ، و كان على رأس

---

[٧] الحج : ١١.

[٨] النساء : ١٤٣.

هؤلاء المنافقين الذين كانوا من الأوس و الخزرج و اليهود عبد الله بن أبي ابن سلول .

لقد كان احتمال الرسول صلى الله عليه و سلم على مكايد مخالفيه في المدينة احتمالاً عجيباً بحيث تعجب الناس على احتماله الذي اختاره لشأن كبير المنافقين عبد الله ابن أبي ابن سلول الذي كان يبدي إسلامه واتباعه للرسول صلى الله عليه وسلم ظاهراً و يُخفي مكره و كيده ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، و لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحسب لمكره و لم يعاقبه علي الكيد الذي انكشف له و على ما ظهر منه و من أصدقائه من قريش ، من مكايد و مؤامرات ، و كان ذلك بجنب ما يعانيه من مخالفيه من اليهود الذين كان اتصالهم بهؤلاء المنافقين و قاموا بإخلاف الوعد الذي كان قد وقع الاتفاق عليه بين المسلمين و اليهود إثر وصول الرسول إلى المدينة ، بل إن هؤلاء اليهود كانوا يساعدون كفار مكة على حروبهم ضد المسلمين ، و قاموا بمؤامرات مختلفة بأساليب شتى لعرقلة الدعوة الإسلامية ، بل للقضاء على صاحبها بكل ما أمكنهم من رجل و خيل

كانت الحملات مستمرة على الرسول صلى الله عليه وسلم في عهدي النبوة في مكة و المدينة اللذين استغرقا ثلاثاً و عشرين سنة ، وواجهها الرسول صلى الله عليه و سلم و المسلمون بكف أيديهم و الصبر العظيم في مرحلة تواجدهم في مكة و برد كيد الأعداء و مقاومة المحاربين بالقوة في المدينة .

فقد شنت قريش و القبائل الموالية أو المتآمرة معها حروباً إثر حروب في عهد إقامتهم في المدينة ، ضد المسلمين ، فقد سافروا بجيوشهم لشن الغارة عليهم في موقعة بدر ، بين مكة و المدينة ، ثم في موقعة جبل أحد في المدينة المنورة في حملتهم في حرب الأحزاب ، و استمر ذلك وانهزموا في جميع هذه الحملات ، و أصبحت كلمة الله هي العليا و كلمة الكفر هي السفلى .

و قضى بذلك رسول الله صلى الله عليه و سلم حياته الدعوية كلها في مواجهة هذه الحملات ، و لكن بكل صبر و احتمال ، فأثبت بذلك مثالاً رائعاً لاحتمال العداوات مع المحافظة على طلب الخير للجميع ، و السعي لهداية الناس إلى الهدى ، و فضائل الإنسانية ، و البر و الإحسان ، صلى الله تعالى عليه صلوات طيبات ، و جزاه عن أمته أكرم الجزاء .

و إن السمة الغالبة لسيرة الرسول صلى الله عليه و سلم الصبر و التسامح و العطف و الصفح و الرحمة وإسداء المعروف والإحسان و حب الخير و السلوك الحسن حتى مع ألد الأعداء بدلاً من الانتقام على الظلم و الاعتداء الذي كان يواجهه من معارضيه ، و من أمثلة ذلك عفوه عن أهل الطائف بعد ما رموه بالحجارة و أدموه ، و كذلك عند دخوله في مكة فاتحاً منتصراً و بين يديه الظالمون الذين آذوه أشد الأذى ، حتى تآمروا على قتله

، فنجا منهم بالخروج من وطنه ، فعندما حضروا أمامه و كان يستطيع أن يضرب أعناقهم ، قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، ثم أعطاهم عطايا كيرة عندما سنح له توزيع العطاء بين أصحابه ، فكل من يطالع السيرة النبوية يصادف هذه السمة الغالية جلية واضحة في جميع المواقف و الأحوال ، و اعترف بذلك المنصفون من المؤرخين و أصحاب الأقلام الغربيين في دراساتهم و كتبهم ، فليس من العدل أن يتهم نبي الرحمة محمد صلى الله عليه و سلم بالعنف و الإرهاب ، إذ أنه أنقذ الإنسانية من الهلاك و الدمار و تعامل مع الجميع بكل سماحة ، و أنقذ الإسلام النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية ، كما اعترفت الباحثة الألمانية د/ زيجريد هونكه ، و يعقوب نخلة روفيلة (١٨٤٧- ١٩٠٥م) صاحب كتاب "تاريخ الأمة القبطية" .

و من أكبر شهادة على حبه صلى الله عليه و سلم للخير و الأمن ، واختياره السلم و الرحمة و تجنبه العنف و الشدة في أقسى الأحوال ، أنه لم يجاوز عدد المقتولين خلال الحروب التي وقعت بين جنود المسلمين و بين أعدائهم في العهد النبوي الكريم كاملاً من ٩١٨ شخصاً موزعين نصفاً إلى نصف بين المسلمين و أعدائهم ، فإن هذا العدد لضحايا الحروب التي اشترك فيها نبي الرحمة طلباً لإسعاد البشرية و نشر الأمن و السلامة في الناس ضئيل للغاية بالنسبة إلى ضحايا الحرب العالمية الأولى التي قامت بها الدول الأوربية فيما بينها لتحقيق أغراضها المادية ، قد بلغ عدد ضحايا هذه الحرب أكثر من سبعين مليون شخص ، و قد كتب المؤرخ الإنجليزي لين بول و هو يصور الغارة الصليبية على القدس ، يقول: "حينما دخل الغزاة الصليبيون في القدس مارسوا مجازر وحشية و عاثوا في الأرض المقدسة مفسدين ، و سالت الدماء أنهاراً ، غاصت فيها الخيول إلى الركب، و قذفت الأطفال من فوق السقف ، و أضرمت النار في اليهود و هم أحياء في هيكلهم "[٩] .

وفي حروب أخرى نشبت بين أبناء الدول الأوربية المسيحية بعضها مع بعض فإنما قتلت آلاف الملايين ، و استمرت بعض هذه الحروب سنين طوالاً ، فكلها في سبيل توسيع المساحة الحكومية و فرض السيطرة من بعضها على بعض ، و بكل همجية و عنف ، أ بعد ذلك يحوز لأي عضو من أعضاء هذه البلدان أن يصف المسلمين بالعنف و الإرهاب ألا يستحون؟ .

---

[٩] رجال الفكر و الدعوة في الإسلام ، للشيخ الندوي .